

الولع بالمتنبي (إعلاء صورته ودرء الشبهات عنه)

** عند محمد لطفي اليوسفي **

Fondness for Al-mutanabi (raising his image and warding off suspicions about him) ** By Mohamed Lotfi El Yousfi **

ط.د/ بن خليفة فائزة (1)

جامعة قاصدي مرباح ورقلة (الجزائر)

benkhelifafaiza@gmail.com

أ/ مالكيه بلقاسم (2)

المدرسة العليا للأساتذة ورقلة (الجزائر)

blkama64@gmail.com

تاريخ النشر: 2025/06/07

تاريخ القبول: 2025/05/04

تاريخ الإرسال: 2025/04/08

الملخص:

يهدف هذا المقال إلى تسليط الضوء على مقاربة "محمد لطفي اليوسفي" "المتنبي" الشاعر الإشكالي المثير للجدل والذي شغل من كتاب "اليوسفي" "قتنة المتخيل" مساحة كبيرة إذ تناول فيه سيرته وعارضيه ومثببيه وشخصيته ومعتقداته وأشعاره وقد نهضت كتابته هذه لإعلاء صورة المتنبي ودرء الشبهات عنه وتقدير منجزه وتبيان مكانته كشاعر حول الشعر عن مجراه من الهوان والضعف إلى التميز والتفرد وهذا ما يُظهر شغفه به وإعجابه وولعه به وإمتنانه لوجود شاعر مثله اجتذبت شعره القاصي والداني ونجح ببراعته في إعادة الشعر إلى أمجاده.

الكلمات المفتاحية: صورة المتنبي، شارات الشعر، السلطة، انشقاق، تمرد، الحظوة، المدائح، الشعرية، الناقدين.

Abstract:

This article aims to shed light on the approach of "Muhammad Lutfi Al-Yousfi" of "Al-mutanabi, the controversial problematic poet, who occupied a large space from the book "Al-Yousfi"; "the fitna of the imagined", in which he discussed his biography, opponents, lovers, personality, beliefs and poems, his writings have risen to raise the image of "Al-mutanabi" and to ward off suspicions about him, to glorify his achievements and to show his status, as a poet who changed poetry from humiliation and weakness to excellence and uniqueness, and this shows his passion, admiration and fondness for him and his gratitude for the existence of a poet like him, attracted his poetry far and near, and succeeded brilliantly in returning poetry to its glory.

Keywords: the image of Al-mutanabi; poetry badges; authority; schism; rebellion; status; praises; poetics; critics.

مقدمة:

لا شك في أن المتنبّي عبقرية فذة واعظم شاعر جادت به الأيام فقد ذاع صيته وبلغ الأمصار والبلدان فبلغ الدنيا وشغل الناس وإعتلى سلم المجد والسؤدد وتبوأ مكانة سنية بشعره الذي عكس الطموح والحكمة والتشاؤم والغضب ... وترجم نظرتة للحياة بجميلها وقبيحها فطوع الكلمات فلانت له وتمخضت عن طريقة شعرية رائدة ومتفردة -لازالت إلى يومنا هذا- تشهد بأنه كان نقطة تحول في المنحنى البياني للشعر العربي، لقد أحدث خلخلة في نظام القصيدة العربية ومعانيها ومراميها، كيف لا وهو الشاعر الإشكالي الفارس والحكيم واللمموح والذي لن يجود الزمان بمثله ولن يتكرر: "فقد كان يلهج بالمجد والسؤدد والملك ويذكر ان له مطالباً جساماً، يرى نفسه أحق بالسؤدد ممن سادوا فيقول (عزام، 2014، صفحة 74):

ومن يبغى -ما أبغى- من المجد والعلّا تساوى المحايي عنده والمقاتل

إنه بحق أسطورة في عالم الشعر وناطقة زمانه إذ حوى شعره من البلاغة والبيان والإبحار في عالم الكلمات ما يجعلنا نتوه في عوالمها بمعانيه المبتكرة والعميقة، كما كان عليماً بعلم النحو محيطاً به وبخباياه فهو من الشعراء الذين يمتلكون ثقافة نحوية وبذلك يقر شوقي ضيف إذ يقول:

"أول شاعر يتصنع في شعره تصنعاً نحوياً، فمن قبله لم يكن الشعراء يكلفون أنفسهم الوقوف على المذاهب النحوية ومعرفة ما بينها من خلاف ولم يكونوا يتعمقون في دراسة النحو على هذه الصورة التي رأيناها عنده" (ضيف، صفحة 399).

كما كانت له القدرة على إقحام قلوب الناس من خلال ملامسته للواقع ومحاربتة لكل سلطة بالشعر، بل وتمكن من إحداث التكافؤ بين السلطة السياسية والسلطة الشعرية: "حيث وصل إلى أوج مجده الفني ووصل بفنه إلى صداقة الأمير والقرب منه" (عبد الرحمن شعيب، 1964، صفحة 33).

وفي واقع الأمر كان شاعراً خالداً سبق عصره وخرج عن السائد المقيت وتمرد على الطرق القديمة في القول وهو ما كان سبباً في تخليد ذكره وإستمراريته على مر العصور (لقد كان يرى الواقع من حوله يومض في لحظات خاطفة فيحس الفرق الشاسع بين أحلامه وطموحه وبين واقع الحياة فيقع في الهوة الحزينة ولكن هذا الحزن لا يستمر إلا للحظات ثم يقبع في أعماقه ويتساه ويبدأ يرسم بالدم لوحة الثورة رسماً دقيقاً عميقاً (الدسوقي، 1977، صفحة 40).

ولا غروا في إنقسام الأراء حوله "بين عائب يروم إزالته عن رتبته فلم يسلم به فضله ويحاول حطه عن منزلة بواه إياها أدبه فهو يجتهد في إخفاء فضائله وإظهار معاييه وتتبع سقطاته وإذاعة غفلاته وكلا الفريقين إما ظالم له أو للأدب فيه" (بن أبي القاسم اسماعيل بن عباد، 1965، صفحة 15).

وبناء على ذلك تشعبت الدراسات والأبحاث التي تناولت منجزه الشعري ولعل ما يهمنا في هذا الصدد دراسة للناقد التونسي محمد لطفي اليوسفي من خلال ثلاثيته "فتنة المتخيل" وبالتحديد في جزئه الأول المعنون بـ"الكتابة ونداء الأفاصي" الذي تناول فيه بالتفصيل كل ما قيل عن سيرته وكل الروايات التي حيكت حوله إذ أعاد إنتاج صورته وقد أعاد للشعر رونقه وجماليته فقد اعتبره زارع فتنة وناشر فوضى بجراته وتمرده وإنشاقه عن المؤلف المتداول ومجابهته للسلطة السياسية بقوة الكلمة -وحسب اليوسفي- هو من بين الشعراء الذين إفتتن بهم وكانوا له الذرع الواقية من التلاشي في الآخر الغربي، وفي ذلك يقول في إحدى مقالاته: "كنت على يقين ان الشعراء الذين إفتنتت بهم لم يرحلوا من الدنيا بل هم يقيمون في أرض متوارية عن النظر: إمرؤ القيس، عنتر، ... إلى ان يصل إلى المتنبّي" (لطفي اليوسفي، 2021). والمتصفح لكتاب فتنة المتخيل يلحظ في يسر عبارة تكرر في غير موضع وموضع إذ يقول: "لقد أعاد المتنبّي هيبة الشعر والشاعر وأظهر مكانتهما الشعرية كما وإن صورة المتنبّي في نفس الكتاب قد إكتسحت مساحة كبيرة منه (الجزء الأول) فقد تناوله "اليوسفي" في أكثر من مئة صفحة وقد نهضت كتابته لإعلاء صورة "المتنبّي" وتقخير منجزه، متناولاً سيرته ومعارضيه ومناوئيه ومحبيه، سارداً كل الحكايات التي حيكت حوله شخصه ومعتقداته وأخلاقه وشعره وعلاقته بأولي الأمر من ملوك وحكام وقادة، لقد قارب "اليوسفي" كل ما نُسج من أقاصيص حوله سواء أكانت تُشيد به وبمنجزه أو تحط من قدره وتطعن في شرفه وأخلاقه ومكانته وكان ذلك في عدة مواضع من الكتاب غنوّها بـ(ثارات الشعر/ دروب الهوان/ دروب الإنشاق/ المدينة ومطاردة جند إبليس/ الإنحطاط: الوعي الفجيعة)

ورغم محاولات "اليوسفي" التستّر على مدى إعجابه وولعه بالمتنبّي وإمتنانه لوجود شاعر بمثل حدّقه وبراعته إلا أنّ حياديته المفتعلة تكاد تتلاشى كلّما تعمّقنا في قراءة ما كتب عنه وينقش السّار ويظهر وجهه الحقيقي الذي يظهر من خلاله "اليوسفي" شديد الولع به منبهاً بمنجزه وما استطاع تحقيقه كيف لا يُعجب به وهو النور الذي أضاء عُتمة الشعر، وهو من ارتفع بالشعر وحول مجراه من الهوان، والضعف والإنحطاط إلى مجرى التميّز والرقى ...

المتنبّي الشاعر الإشكالي المثير للجدل والذي لم يَسَلَمْ يوماً من نقد الناقدين أو مقت الشائنين والحاسدين، تراءى أديم نصوص وفقرات "فتنة المتخيل" عظيماً راقياً مُعتداً بنفسه "فقد كان يرى نفسه مساوياً للملوك

والعظماء بل وأعظم كثيراً منهم فقد قيل في رثاءه: كان من نفسه الكبيرة في جيش ومن كبرياءه في سلطان (عبود، صفحة 221).

لقد فتح المتنبي قدام الشعر آفاقاً لا عهد له يمثلها متخبطاً متجاوزاً ضجر الإجتراح وملل الفكر وتبدل القرائح وجفافها، فلم يَجْزُ شاعرٌ شهرة المتنبي فقد كان الشاعر الخالد (...) كان جريئاً في أسلوبه يُحاول أن يُوجد لنفسه أسلوباً خاصاً، وهذا هو الشاعر (...) فهو قوي في مبادئه، قوي في خياله وتصوّره، قوي في فلسفته شاعر بما في نفسه من قوة ونبوغ يراها فوق كلّ شيء حتّى فوق نفسها... (عبود، المرجع نفسه، الصفحات 220-223).

وقد تعرضت وتضاربت الأخبار التي تناولت سيرته الشعرية أو الشخصية فهو من بين الشعراء الذين أحدثوا نقلة نوعية في الشعر وانتقلوا من مهاوي السقوط والتردي والجمود والتكسب والإرتزاق إلى أعالي المجد والعزة والكبرياء والشموخ وسما به إلى آفاق لم يبلغها من قبل، إنّه شاعرٌ عُرِفَ ببراعته وحذقه فلا يُباريه أحد: "كان يرى كلامه القول الفصل، يقطع في كلّ قول مبتدعاً لا مُتّبِعاً" (عبود، المرجع نفسه، صفحة 223).

كان ظاهرة لافتة اجتذبت إليها الداني والقاصي ونجح ببراعته في إسالة حبر الكثيرين سواء من محبيه أو مُناوئيه:

"سيقف المتنبي وحيداً ويُجسّد سلطة الكلمات وسلطان الشعر" (لطفي اليوسفي، 2002، صفحة 299). وسيَسْمُو بالشعر من التشيؤ والعادة والتكرار المريع: "وبالشعر وبما تَمْتَلِكُهُ الكلمات من سلطان وسطوة سيواجه المتنبي هذه السلطة المزدهوة بنفسها" (لطفي اليوسفي، المرجع نفسه، صفحة 299)، والتي أسهمت بشكل كبير في الحطّ من قيمة الشعر والشعراء إذ حوّلت عن مقاديره فأصبح مجرد سلعة تبادلية لخدمة الحُكام وذوي النُفوذ.

لقد رسمت المتون القديمة صورة "المتنبي" مسلوب الكرامة مرتزقاً متكسباً، وتم الطعن في نسبه وخُلُقِه وفي دينه يكتب اليوسفي: "إنّ الحطّ من نسب الشاعر على هذا النحو في مجتمع يعتبر صراحة النسب قيمة لا يمكن للمرء أن يَشْرُفَ إلا إذا حظي بها إنما يرجع في جانب هام منه إلى الخطوة التي نالها الشاعر في زَمَنِهِ من رِياسة على الشعر، ليس سوى جزء بسيط مما سيناله من مجد في المستقبل وهو على يقين أيضاً أن الرياسة في الشعر لا تنتهي بموت الشاعر بل تستمر بعده وتزدادُ مضاءً" (لطفي اليوسفي، المرجع نفسه، صفحة 302).

كيف لا؟ والريادة على الشعر كما أيقن القدامى أبدية سرمدية لا تتقادم ولا تمحوها السنين، هي دائمة مآدامت الأجيال تتوارثها كابراً عن كابرٍ ولا تبلى ولا تزول.

لم يَسلم المتنبي من الطعن والتشهير والتشكيك به بأصله وموهبته الشعرية، لكنه رغم ذلك كان ذو عزيمة جبارة وذكاء خارق ووعي حاد بأنه الشعلة التي أضاءت ظلمات الشعر العربي في أحلك حِقبة والتي عايشها كشاعر وحرّص على إعادة البريق للشعر، يكتب اليوسفي : "لقد كان المتنبي على يقين من أنه عاد بالشعر العربي إلى أمجاده كان على يقين من أنه جدد للشعر ناره وأعاد للكلمات لهبها وكان على يقين أيضاً من أنّ الشعر ديوان العرب" (لطفي اليوسفي، المرجع نفسه، صفحة 303).

لقد أعاد للشعر لهيبه وألهب صدور كارهيه حقداً وحسداً وبُغضاً له، فلم يَكفّ الخصوم العيَّابين يوماً من إنتقاد شخصه فلم تَكفّ الأخبار التي تناولت شخصية المتنبي بالطعن في نسبه -فحسب- بل عمّدت إلى تجريده من أبرز قيمة من القيم الإجتماعية فتفنّنت في الحديث عن بُخله وحرصه على المال في ثقافة إحتقّت بالكرم ومجّدته ونسجت من حوله الحكايات والأقاصيص" (لطفي اليوسفي، المرجع نفسه، صفحة 302).

وثمة تقنن في حبك المكائد والأقاصيص التي تحطّ من قدره وتُقرّمه وتُنقّيه وتُجرّده من كلّ الصفات والقيم السنية وتصممه بالعار وتُلصق به كلّ ما هو ذميم مقيت، وتتغاضى عن شرفه وإعتداده بنفسه وقوة شخصيته يكتب اليوسفي مدافعاً : "لقد كان المتنبي شاعراً ملأ الدنيا وشغل الناس تبارى الملوك في إستدراجه إلى بلاطاتهم ومجالسهم وتسابقوا إلى مدائحه فيمهم يرجفون هلعاً من ضجراته ومُهِجَاتِهِ، لكن الأخبار ستشهد التغاضي عن هذه الحقيقة التي تُشهر بها المتون القديمة وتؤكدّها جميع الكتب التي تناولت سيرة الشاعر، ستحرص على تجريده من فضل الشعر أيضاً" (لطفي اليوسفي، المرجع نفسه، الصفحات 327-328).

هو لم يسع لنيل الخطوة والقبول بل تم إستدراجه ليمدح ممْدُوحيه بل وأكثر كان لا يمدحهم إلا جالساً حسب ما ذكرت نفس المصادر -إذن- هناك حرص ومخطط ومكائد تسعى لتحقيره، وهنا بالضبط سيعملما أطلق عليه "اليوسفي" بقانون التنادي بين النصوص وستشهد استسلاماً مريعاً لفتنة السرد وإغراءاته، فكلّ ما قاله "الحاتمي" مثلاً محض إفتراءات وخيال حاقد جرف صاحبه إلى الحضيض، إنه خيال مؤلف حاقد شانيء حسود جسد بكل براعة سلطة سياسية حاقدة، يقول اليوسفي: "لهذا التنادي الخفي بين النصوص والمتخيلات دلالتة على أنّ الرسالة مُخرقة من الداخل بأحلام واضعها وهي تُوهّم بأن مدّة ومحصل أمرها تحقير المتنبي، فيما هي إنما تضعنا في حضرة الذات وهي تحلم ذاتها وتقول نزواتها ورغباتها، ثمّة استسلام واضح لفتنة السرد، ثمّة مكبوتات علقت بالكلام واندست في تلاؤنيه وشرعت تفصح عن نفسها إيماءً وحطفاً، وتلك مكائد الكلمات وثاراتها فهي توهم بأنها تستسلم لمستخدمها وتتناقد لمجرّبيها فيما هي تضعنا في حضرة المضمّر والمسكوت عنه وهذا الذي لا يُجاهر به المؤلف من شأنه أن

يَدْفَعُ بالمتلقي إلى الريبة والحذر لا سيما أن التنادي بين النصوص يشير صراحةً إلى أن "الحاتمي" لا يَنْقُلُ وقائع بقْد ما يستلهم نصوصاً كما أوضحتُ" (لطفِي اليوسفي، المرجع نفسه، صفحة 342).

للحديث شجون - إذن - وللكلمات فتنُّها وثاراتها فهي تمكّر بقاتلها وتأخذه إلى مهاوي السقوط والتدني، إنَّ اليوسفي: مؤمن بعبقريته المتنبّي بل ومُصرّ: "على أن شعره مثل لحظة من أكثر اللحظات إشراقاً في عتمة ليل طويل، فمع المتنبّي أَمْعِن الشعر في نسج ثاراته، فكان خروج وكان إنشقاق على مُقرارات النظرية الأدبية التي تشكّلت محكومة من الداخل بهاجس إبطال فتنة الكلام والحدّ من إندفاعاته حتى يَخْدُم قيم المجموعة مدحاً أو هجاءً، إن الخروج عن مقرارات النظرية يعني العودة بالكلمة إلى ما كانت عليه أيام كانت تبتنى الحقيقة التي تُعلَن عنها، ةأيام كان الشعر والنبوءة صنوين: أيّام كان الشاعر يُنزل منزلة النبي كما يقول الشيخ الرئيس ابن سينا" (لطفِي اليوسفي، المرجع نفسه، صفحة 381).

لقد نال شعر المتنبّي من الحظوة والأثرة والتمجيد مَ جَعَلَهُ ذو طابع نبويّ رسولي فكلّ الروايات التي كانت تسعى إلى إثبات خبث مُعتقد المتنبّي تكشف عَنْ ما يربُضُ في الوجدان الجماعي من إحساس دفين بأنّ لا معين للشعر إن لم يكن ذو طابع رسولي ولا معنى للكلمة إنْ هي لم تكن أصلاً جرحاً منه طلعت الحياة في البدء وبه تسنّمُ" (لطفِي اليوسفي، المرجع نفسه، صفحة 383).

كان المتنبّي على وَعِي تام بأنّ شعره أعظم من أن تُقدّره أو تُكافئه السلطة السياسية فهو بكلماته يَهَيِّمُ الخلود والبقاء "وبالشعر يمكّنهم من عبور هاوية النسيان" (لطفِي اليوسفي، المرجع نفسه، صفحة 388).

إرتباطاً بما سبق فثمة تبرير لإنشقاق المتنبّي وتمرّده على قيم الجماعة وعلى سلطة سياسية سَلَبَتْ الشاعر امجاده وسيادته وأرغمته على الإستجداء بشعره، فكان لزاماً مواجهته تلك السلطة المستبدّة ومواجهتها وهنا يعرّضُ "اليوسفي" أو يُعاوِدُ عَرَضَ وجهة نظره المُلفّنة والمثيرة للإهتمام في كونِ الأقول الحقيقي للشعر لم يكن وليدَ عصر من العُصور أو سمة من سِمَاتِ زمن أو حِقْبة معينة، السقوط الحقيقي كان مع الوقفة الجلل التي وقفها "كعب بن زهير" تائباً خانعاً مادحاً، في تلك اللحظة تجرد الشاعر من سيادته وسلطته على الكلمة وخُلِعَ من منصبه كسلطان على الكلام يكتب "اليوسفي": "لقد سُلِبَ الشاعر رياسته على الكلمة وجُرد من سلطته على اللغة منذ تلك الوقفة الجلل التي وقفها كعب بن زهير بين يدي الرسول، تلك الوقفة التي جاء فيها تائباً طلباً للنجاة ولم يُنْشِدهُ مادحاً إياه فحسب بل سلمهُ الرياسة على الكلمات، والثابت تاريخياً أن مُعادَة أعيان قريش وساداتها للنبي كانت تصدر عن الخوف من فقد السيادة والريادة والمكانة التي تمكّنوا من حيازتها في التنظيم الاجتماعي الذي جاء الدين الجديد ليعصِفَ به، أما الشعراء ممن عادوا المتنبّي فقد كانوا يصدرون عن الهلع من فقد ما به يكونون: الإمارة على دنيا الكلمات" (لطفِي اليوسفي، المرجع نفسه، صفحة 378).

ويفسرُ "اليوسفي" إنشاق الشعراء ومروقهم وتمردهم بأنه يعود لتلك اللحظة التاريخية الحاسمة التي أخضعت الشاعر وحدت من جموحه وإفقدته زعامته وسلطته على الكلمات، فالإسلام أضاع وبدد مكانته ونحاهم وزحزحهم من منصبهم ومقامهم الرفيع ولا سبيل لمواجهة ذلك ومعارضته وعدم تقبله إلا بالإنشاق والخرق وشق عصا الطاعة والمُروق على الشريعة التي سلبتهم حقهم في الكلمة والقول، يقول اليوسفي مبرراً: "خروج الشعراء من أمثال "بشار" و "أبي نواس" و "أبي العتاهية" و "ديك الجن" و "أبان بن عبد الحميد" و "المتنبي" عن بعض مقررات الشريعة فمن الكلمات وما تملكه الكلمة من سلطان يستمد الشاعر جميع أمجاده أن الكلمة في الوجدان الجماعي والتمثيل الجماعي ليست أداة، وليست وسيلة إلى الحقيقة، بل هي نفسها التجسيد الفعلي للحقيقة المُعلن عنها، أنها موضع إنكشاف الحقيقة وإعلان نفسها، والشاعر هو الذي يبتني تلك الحقيقة في الكلمات وبالكلمات، والدين الجديد إنما جاء مُكرساً الرؤية ذاتها والحقيقة التي يُعلن عنها إنما يُجسدها النص القرآني" (لطي اليوسفي، المرجع نفسه، صفحة 379).

تأسيساً على ما سبق فإن الإسلام كرس -حسب اليوسفي- نفس النظرة التطويقية المُحاصرة التي تُسيح الكلمة وتُحاصرها وتحتويها خوفاً من فتنتها وتأثيرها على قيم المدينة وناسها. لقد جاء المتنبي ليفتح آفاقاً جديدة للشعر لم يَعهد لها أو يألُفها من قبل: "فأعادَ للشعر سيادته ومكنه من افتتاح تاريخ ثارته" (لطي اليوسفي، المرجع نفسه، صفحة 379).

ويكفي ان نتملى أشعار المتنبي ليتبين لنا بوضوح إستغلاله لمساحة الشعر لتكريس الخروج والإنشاق والإنعتاق وفي ذلك يكتب: "هكذا يتخذ الشاعر من النص فضاءً يُمارس فيه حرّيته ويُفْلِت من قبضة المتعاليات والمحرمات، مُكرساً الإنشاق عليها وهكذا تشهد الكتابة نوعاً من التحوّل وتُصبح تمرّداً وخروجاً على القيم المفارقة، القيم المطلقة التي حرصت على تدجين الكائن وترويضه خدمةً للمتعاليات والمطلقات" (لطي اليوسفي، المرجع نفسه، صفحة 411).

إنّ كلّ محاولات الترويض والإخضاع والتطويق لم تُثْنِ المتنبي عن إستغلال الفضاء الشعري لخلخلة النظام وزرع رؤيته وتوجهه ولُيعبر عن رفضه لكل أشكال التدجين، فيكفي بالمتنبي شرفاً أنه قلب الموازين ورجّح الكفة لصالح الشاعر، يقول اليوسفي: "ثمة عملية قلب طالت الأدوار والوظائف، لقد كفّ الشاعر عن كونه يقول الشعر طمعاً في عطايا الملوك، بل الملوك هم الذين صاروا يتبارون لنيل الخطوة عنده طمعاً في مدائحه وأشعاره وكفّ الشعر عن كونه سلعة ذات قيمة تبادلية وألجمت سطوة المال والجاه، فقد سلطانه قدام سلطان الكلمة وعزبت السلطة السياسية ممّا يصنع مهابتها وسؤددّها حين وصعت في مواجهة السلطة الشعرية ولذا انتصرت الكتابة" (لطي اليوسفي، المرجع نفسه، صفحة 389).

انتصرت الكتابة ودحرت قوى التطويق واللجم والقهر، لقد عَصَفَ المتنبي بمقررات النظرية ذات التصور البياني القديم وتجاوز الضفاف والسُنن المتوارثة وأبحرَ بعيداً متجاوزاً كلَّ ما يأسره ويحدُّ من إندفاعاته يقول اليوسفي مفتخراً: "يكفي النظرُ إلى الكيفية التي تعاملَ بها المتنبي مع الأغراض التي عليها جريان الشعر العربي وسنلاحظ في يُسر انه عَصَفَ بمقررات هذه النظرية، ثمة بعثرة للأقسام التي ضبطها النقاد وإعتبروها من علامات الجودة حتى يلتزم بها الشعراء، ثمة محو للمسافات الفاصلة بين المدح والثناء، وتلك التي ترسم الحدود بين المدح والغزل، ثمة مزج بين المدح والثناء والهجاء، ثمة تماهٍ ينشأ في لحظة الكتابة بين المدح والفخر أيضاً" (لطفی اليوسفي، المرجع نفسه، صفحة 404).

غير أنَّ الظاهر يوهم بعكس الباطن فقد يتهيأ لنا أنَّ هنالك إلتزام وإمتثال بمقررات نظرية القدامى في القول فيما نجد المتنبي يهزها هزاً عنيفاً محدثاً فيها خلخلة حتى "لكأننا في حضرة شاعرٍ يُوهَمُ بأنه يخدم قيم المدينة وناسها مدحاً وهجاءً فيما هو يحوّل النص إلى موضع تتكشف فيه الذات بكلِّ أبعادها، نزواتها ورغبتها الجارفة في كسر الممنوع وهدم المحرّم" (لطفی اليوسفي، المرجع نفسه، الصفحات 404-405). بناءً على ذلك فقد كرّس المتنبي الطابع الإنشقاقي وعَصَفَ بالقوانين وأعلن عن شرعة الاختلاف والتغاير متخطياً منطقة الممنوع والمحضور والمحرّم وخروجه من منطقة الشعر إلى الفلسفي والعقائدي.

تتبين ممّا سبق وَلَعَ اليوسفي بالمتنبي ومحاولته التصدي والردّ على من يتتبعون سقطاته ودأبه على صدّ معاييبهم وانتقاداتهم له، ومحاولته إعلائه وتبيان مكتائنه كشاعر ملأ الدنيا وشغل الناس"، نظراً لأن شعره إحْتَلَّ مكانة عليّة ونجح من خلاله تكريس الإنشقاق والخروج عن قيم طالما صفت وطوقت الشعراء وأرهقتهم بقيود نظرية العرب القدامى في الشعر والشعرية من جهة وقيود قيم المدينة وناسها من جهة ثانية.

لقد حشد "اليوسفي" في كتابه كلَّ مثالب ومعاييب وسقطات المتنبي حسب ما رصدها المتون القديمة وحاولَ الكشف عن الأبعاد الإنشقاكية والجمالية والإبداعية في شعره والتي أدّت إلى تأليب الحاسدين عليه وبالتالي كرهه خاصة وأنه شاعر عُرف بجموحه وتيهه وإعتداده بنفسه وأنفته وأرجع تكالب الرواة ورجالات الأدب عليه إلى نظريته المتميزة للوجود وفلسفته المثيرة للإهتمام وآرائه المثيرة للجدل، وقد اعتبر "اليوسفي" كلَّ ما كُتِبَ تدنيس لسُمتّه وهو ما يظهر جلياً -حسب قوله- من خلال التعارض الصارخ في أقوالهم والتناقض البين في رواياتهم وهو ما يشير صراحةً إلى تكتم واضعيها عن مقاصدهم الحقيقية وكلّها كانت حريصة تمام الحرص على تنقيح المتنبي وتجريده من الخصال الحميدة والتقليل والحقّ من شأنه ومن كلِّ الجوانب سواءً (شعرياً أو دينياً أو أخلاقياً أو حتى أدبياً، ورسمت له صورة سوداوية محاطة بهالة من الدونية والقُبْح والفتامة، لقد تمَّ إستقباحه وإستصغاره وإنتهاك خصوصيته وإيذاؤه بشتى الطرق وكلّ هذا

الكم الهائل من الكره والتحقير لا تفسير له سوى المكانة والخطوة البالغة التي نالها المتنبي: "وما حققه من ريادة في الشعر أثارت حفيظة هؤلاء وألهمت نيران الحقد في قلوبهم لذا حاولوا تلبيسه كل ما هو دنيء مشين، حتى يطمسوا أمجاده ويشوهوا معالم حاضرة ومستقبله بحكم ان الشاعر لا يفنى ولا يزول ذكره بموته وفنائه بل يظل شعره يحيا في وجدان الذاكرة الجماعية، خاصة وان "المتنبي" عبر الحدود الفاصلة بين ما هو حيني متلاش وما هو مستمر دائم لا يبلى بالتقدم فقد كانت له القدرة على جعل الكلمة طريقاً إلى "فتح الزمنى العابر على اللازمى (...)" وفي الكلمة يلتقي ما هو زمنى عابر فان بما هو لازمى " (لطفى اليوسفى، المرجع نفسه، صفحة 379).

لقد شغل المتنبي الناس وملاً الدنيا وطبق الآفاق جميعها وهذا ما يصطلح اليوسفى على تسميته "بثارات الشعر" وخير دليل على ذلك شهادة "أبو العلاء المعري" مثلاً، "فهو الرجل العالم باللغة العربية وهو بما يمتلكه من جرأة ومعرفة بعلوم العربى وآدابها لا يمكن أن تكون مجرد تعصب فالمعري شاعر خبير الكلمات وتمرس بمضاييق الشعر وحذق أشعار العرب، وإختياره لعنوان كتابه "معجز أحمد" ليست من باب المبالغة إنما جاء مجسداً لوعيه بان ديوان المتنبي قد أعاد للشعر ناره ووهبه ما به يمكن أن يُنجز ثارته" (لطفى اليوسفى، المرجع نفسه، صفحة 359).

والمؤكد أن "المتنبي" استطاع ان ينتشل الشعر العربى من الوهن والإنحطاط والضعفة فكل أخبار الرواة التي ثقلت عن المتنبي تقننت في إيراد هوانه وضعته وحماقته وسوء أخلاقه هي على سبيل حيك المكائد للخط من قدره، وكلها تصبو إلى جعل المتلقي يسلم أن عظمة المتنبي ومكانته الرفيعة ليست سوى غرور كاذب ووهم ومحض إفتراء وإختلاق وهنا يأخذ "اليوسفى" على عاتقه مهمة الرد على ما اصطلاح بتسميته "بمكر الرواة" فهو يؤكد في أكثر من موضع أن كل ما قيل عنه وما لُفّق لشخصه من معزات ما هو إلا "مكر رواة" وتجسيد لضغائن وأحقاد دفينه صاغها الخيال البشري المتلون بالغيرة والخُبث والحسد، وهي نزوعات شريرة فظيعة ودونية حرص أصحابها على تصويره منتهاكاً حقيراً ذليلاً مُهاباً ومُتكالِباً على المال والسلطة، فاسد العقيدة والمعتقد، لقد أسلموا أنفسهم للشر الذي سكن أنفسهم وانقادوا طوعاً مستسلمين لفتنه السرد، ويكفي أن نتملى الأخبار التي تناولته وسيكشف لنا كيدهم ويُفضح حسدهم وتكالبهم وتحاملهم عليه وحرصهم على إصاق المعزات بشخصه وسيظهر لنا جلياً تناقضهم وتضارب حكاياتهم يكتب اليوسفى في نبرة لا تخلو من تأكيد: "إن التعارض بين الأخبار ليس خالياً من المعنى فهو يشير صراحةً إلى تلك الأخبار التي كثيراً ما وقع اعتمادها في الإحاطة بجوانب من شخصية المتنبي وسلوكه وسيرته تحمل في تلاوينها ما به تتكتم عن مقاصد واضعها وناقليها جيلاً بعد جيل لا تتأتى بما نقول فحسب بل ممّا تتستر عليه أيضاً" (لطفى اليوسفى، المرجع نفسه، صفحة 300).

ويسترسل شارحاً ومؤكداً كذب الرواة ومكرهم وكيدهم: "لقد جاءت الأخبار التي حدثت عن سلوك المتنبي، عن طباعه ونسبه ومبادئه مسكونة من الداخل بحرص واضح على تنقيحها وتجريدها من القيم وبذلك رسمت له صورة في منتهى القتامة، صورة مُنفرة محاطة بهالة من سواد، والناظر في هذه الأخبار على غزارتها وتتوَعها سرعان ما يدرك أنها تتحرك في المكر، فهب تدور حول أهم القيم التي مجّدها الجماعة واحتفى بها الوجدان الجماعي حتى إذا عُدِمها المرء انحطّ وهان" (لطفّي اليوسفي، المرجع نفسه، صفحة 300).

وكلّ ما قيل لا يمحو اقتدار المتنبي على الشعر وتمكنه من ناصيته وقدرته وبراعته في تصريف الكلام، لقد نجح رغم كل شيء في بلوغ منزلة عليّة سنية وسيصبح لقبه "المتنبي" دالاً على أعظم شاعر من شعراء العصر العباسي حيث تمكن من قلب موازين الشعر ورفعها من صنعته المقيّنة، كما أسهم في زحزحة وخلخلة مفاهيم كثيرة لصيقة بالشعر كالتكسب مثلاً، فقد كان الخلفاء هم من يطلبونه وبإلحاح ومكابدة وإصرار لعلهم ينالون الحظوة عنده طمعاً في أن يمتدحهم بأبيات تُخلد ذكركم، وبفضله تساوت السلطة الشعرية مع السلطة السياسية وكفّ الشعر عن كونه سلعة تبادلية وانتصرت الكلمة أمام السلطة السياسية وتمكنت السلطة الشعرية كما قال اليوسفي من الثأر والقصاص لنفسها.

تتبيّن مما سبق إنجذاب وإعجاب "اليوسفي" بالمتنبي فقد حرص في كتابه على تحليل كلّ الحكايات التي حيّكت حوله وتوصيفها وتفكيكها وتصنيفها ليثبت أنها في غالبيتها مجرد مكائد وألاعيب رواة قصدها وغايتها الأولى الهبوط بشخص المتنبي إلى مدارك الحضيض وقد ردّ "اليوسفي" على مزاعمهم المضلّة والزائفة يقول: "ويبقى المتنبي هو الشاعر الذي أعاد للشعر العربي أمجاده" (لطفّي اليوسفي، المرجع نفسه، صفحة 303)، فالمتنبي شاعر تشهد الدنيا قاطبة على تعاظمه وإعتزازه بنفسه وقد أجمعت المتون القديمة كلّها على مدى إمتلائه بذاته وهو نفسه يجاهر بذلك الإعتزاز الذي قلّ أن نجد له مثيلاً لدى غيره من الشعراء فهو يعلن مثلاً:

إن لم أكن مُعجباً فعجبٌ عجيب

لم يجد فوق نفسه من مزيد

وقوله في حضرة سيف الدولة وعلى مرأى ومسمع منه ومن جلسائه من مثقفي عصره فيعلن مجاهراً (لطفّي اليوسفي، المرجع نفسه، صفحة 318):

سيعلم الجمع ممّن ضمّ مجلسنا

بأنّي خير من تسعى به قدّم

كفاءة المتنبي الشعرية وتميّزه هو ما جعل "ابن جني" يندّر نفسه وعلمه ومعارفه للدفاع عنه : "سيعمد ابن الجني إلى نعت العيابين الناقمين على المتنبي بأشنع النعوت مُعتبراً المتنبي الشاعر الفريد الذي توغل في

مناطق قلّ أن انفتحت في وجه غيره من شعراء العربية وأجرى الكلام في مناطق لم يسبق إليها وهو يُجَاهِر بأن الشعر العربي قد شرع يفتتح تاريخ أفوله فكان أن نجح المتنبّي في تجديده فأعاد للكلمات طرقاتها و للشعر مائه" (لطفّي اليوسفي، المرجع نفسه، صفحة 317).

لقد حذق المتنبّي الشعر ونال الريادة والسؤدد "وكلّ من تكالبوا عليه إنما صَدَّروا عَنْ نوع الوعي المضني، أن لن ينالوا ما نال من سؤددٍ ورياسة" (لطفّي اليوسفي، المرجع نفسه، صفحة 318)، والدليل على سؤودده وسلطانه على الكلمات أن كلّ من اضطلعوا بدورٍ مؤسس في علوم العربية وآدابها هم الذين ناصروه وأخذوا على عاتقهم مهمّة الدفاع عنه والردّ على شائئيه يقول "اليوسفي": "من اضطلعوا بدور مؤسس في علوم العربية وآدابها هم الذين نأصروه ولم يَغفُوا في فخّ التحاسد والضغينة والكيد" (لطفّي اليوسفي، المرجع نفسه، صفحة 319).

كيف لا؟ وكلّ من أيّدوه وعضّدوه هم بمنزلة "ابن جني" و"أبو العلاء المعري" و "ابن الأثير" وغيرهم. تأسيساً على ما سبق نخلص إلى القول أن المتنبّي بتميزه نادر لا نظير ولا مثيل له، فهو السّباق إلى قمم المجد فقد نجح في إيقاظ الشعر من نومة اللّحود وبثّ فيه روحاً جديدة، وهذا ما أثار حفيظة مناوئيه والحاقدين عليه كما أثار فزع السلطة السياسية ونال الحظوة والمكانة الرفيعة التي لم يتلّها شاعرٌ قبله وقد أسهم في إضافة فصل جديد من فصول الشعر في عصر شهدت نهاياته جفاف القرائح وتبدّل الأدمغة وعجزها عن الإبداع. لقد إفتتح فصلاً من التميّز والتفرد وكان بحقّ علامة فارقة وطفرة فقد تمكّن من أن يخطو بشعره خطوات جبارة ونحى به بعيداً نحو ما لم يعهده من قبل فظفر بالسؤدد والحظوة وكتب اسمه بحروف من اللازورد رغم واقعه المتردي والصعب، لذا حقّ له أن يشغل الناس بذكره ويملاً عالمهم بنقده الشعري، وحقّ "اليوسفي" أن يُخصّص جزءاً كبيراً من كتابه لتبيان مكانته الأدبية، وحقّ له أن يُحاط كما قال "اليوسفي" بهالة نورانية فقد سمّا بالكلمات إلى المعالي فأبدع وحجز لنفسه مكاناً بين العباقرة والمبدعين الأفاضل وبفضله: "إنتصرت الكلمة لذاتها" (لطفّي اليوسفي، المرجع نفسه، صفحة 389).

لقد أعاد للشعر والشاعر شرف التسمية وإنتشل الكلمات من سطوة النسيان وهوّل اللامعنى إلى الأبدية يقول اليوسفي ممجداً "وحدها الرياسة على الكلمات هي التي تمدّ المرء بأمجادٍ لا النسيان يطالها ولا البلى يُدركها حتى نهايات الزمان" (لطفّي اليوسفي، المرجع نفسه، صفحة 397).

وإرتباطاً بما سبق نقول حقّ "اليوسفي" أن يُمجّد ذكره ويدرّ عنه الشبهات ويرفع مقامه فقد كان بصمة خالدة منيرة في شعرنا العربي.

الخلاصة:

وحدها الرياسة على الكلمات يمكن أن تصنع المجد للشاعر وتجعل صيته ذائعاً إلى نهايات الزمان ووحده المتنبي -حسب اليوسفي- من استطاع أن يبلغ هذا الشأن العظيم وأن يصل لهذه المكانة الرفيعة ويترفع على عرش الشعر في زمن ضعف فيه الشعر وهان، لقد فرض المتنبي نفسه كشاعر متميز لم يجذ الزمان بمثله من خلال إنشاقه عن التصور البياني القديم وتجاوزه المتوارث والمتعارف عليه لقد كان جامعاً ومنشقاً أثبت نفسه السير على درب السنن القديمة ونبذ كل ما هو مكروه مُعادً، لقد كان شعره تعبيراً شديداً اللُصوق بذاته فكان صورة لنفسه في جميع أحوالها، في مجازفتها وفي تقديسها للقوة، في صبرها وأنفثتها، في ثورتها وفي تشاؤمها وفي إعراضها عن القيم الروحية... (الفاخوري، 1987، الصفحات 4-5).

وقد كان ممثلاً بنفسه مُعتداً بها شغوفاً بالمجد طموحاً إلى المعالي والآمال العظام، لا يرضى بالمحدود من الآمال هذا الجُموح وهذا التيه هو ما أدى إلى تكالب رجالات الأدب والرؤاة عليه، فأنقسموا بشأنه في شأنه.

قائمة المصادر والمراجع:

- ❖ صاحب بن أبي القاسم اسماعيل بن عباد. (1965). تحقيق محمد حسن آل ياسين (الإصدار 1). بغداد، العراق: مطبعة المعارف.
- ❖ حنا الفاخوري. (1987). تاريخ الدب العربي (الإصدار 12). جونية، لبنان: منشورات المكتبة البوليسية.
- ❖ شوقي ضيف. الفن ومذاهبه (الإصدار 11). القاهرة، جمهورية مصر العربية: دار المعارف.
- ❖ عبد العزيز الدسوقي. (1977). في عالم المتنبي (الإصدار 2). القاهرة، جمهورية مصر العربية: دار الشروق.
- ❖ عبد الوهاب عزام. (2014). ذكرى أبي الطيب بعد 1000 عام. القاهرة، جمهورية مصر العربية: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- ❖ مارون عبود. أدب عربي مختصر تاريخ نشأته وتطوره و سير مشاهير رجاله وخطوط أولى من صورهم. القاهرة، جمهورية مصر العربية: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.
- ❖ محمد عبد الرحمن شعيب. (1964). المتنبي بين ناقيه. القاهرة، جمهورية مصر العربية: دار المعارف.
- ❖ محمد لطفي اليوسفي. (2021). "حرفة الوراقين" الموقع. تاريخ الاسترداد 05 أفريل، 2025، من medlotfiyousfi.com

❖ محمد لطفي اليوسفي. (2002). فتنة المتخيل (الإصدار 01). بيروت، لبنان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.